

الفصل ١٧: شحد در انطلاق

لأستاذ محمد سلام مذكور

رئيس قسم الشريعة الإسلامية
 بكلية الحقوق - جامعة القاهرة

وقد دل الواقع التاريخي الطبيعي ايضا على ان الام التي دخلت في الاسلام من الفرس والروم والمنود وغيرهم اقبلوا اقبالا عجيا على دراسة اللغة العربية واوغلوا في تصنيف الكتب وتنوع العلوم التي تخدم القراءان والسنة النبوية ، وكان لذلك اثره العظيم في خدمة تفسير القراءان الكريم ودراسة السنة النبوية .

فسيبويه واسع النحو في اوائل العصر العباسي، وعبد القاهر الجرجاني امام البلاغة الاول والسكاكى امامها الثاني في عرف البلاغيين ثم ابن جرير الطبرى امام الفسرين بالآثار والزمخشري امام الفسرين بالصناعة العربية الذى قيل فيه وفي السكاكي : لولا الاعرجان لخاعت بلاغة القراءان ، وكثرة كاثرة من امثال هؤلاء لم يكونوا من عناصر عربية ، وانما كانوا من عناصر اعجمية دخلت في الاسلام فشمرت عن ساعد الجد للدراسة اللغة العربية في مفرادتها وفي اساليبها وفي معارفها وفي آدابها مما سلط الاضواء المزيرة على الاسلام حتى دخل الناس فيه افواجا واما ، وحتسى غرت لفته كثيرا من الامم حتى يستطيعوا التعمق في تفهم احكام الدين وثقافاته المختلفة .

وفي الائمة المجتهدین الامام الاعظم ابو حنيفة النعمان الذي اخذ عنه بالباشرة او الوساطة كثير من الائمة ؛ لولا تعلمها لغة العرب لما استطاع ان يصل الى ما وصل اليه في مراتب الاجتہاد . فهذا الخصم الجم

نعم ان هناك ارتباطا بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية ، ولكن نتصور هذا الحكم بوضوح فان علينا ان نفرض ان اللغة العربية ظلت قاصرة على التخاطب او الخطابة او الكتابة او النظم في الجزيرة العربية وحدها ، مع اعتبار ان رسالة النبي محمد صلوات الله عليه رسالة عامة كافة مصداقا لقول الله سبحانه : « وما ارسلناك الا كافية للناس » فهل كان يمكن ان اولئك المخلفين بما ارسل به محمد في غير الجزيرة العربية يتفهمون ذلك الدين الجديد حتى يقوموا بتتكليفه وينهضوا باعبائه ، ولهذا فان الواقع الطبيعي المستمد من منهج محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه انهم بدأوا ينفذون رسالتة الاسلام بلغة العرب ؛ وكان المرسل اليهم من الامم الاخرى ينظرون الى ترجمة ما يبعث اليهم من النبي او اصحابه كما تدل على ذلك كتب النبي صلى الله عليه وسلم الى ملوك ورؤساء الامم المحيطة بهم . وهذا يدعوا الى ان تتعلم الامم المختلفة لغة الاسلام وهي اللغة العربية حتى تستطيع ان تتجه الى هذا الدين الجديد وتسير على وفق مناهجه .

واذا كانت هناك ترجمات من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية وقعت في عصور الحلفاء الباباسيين فمن بعدهم فانما كان يدعو الى ذلك القصد الى تزويد الامة العربية بثقافات يستطيعون ان يتماشوا بها مع الامم الاخرى التي دخلت في الاسلام .

من المؤلفات العربية ، الذي كان مادة للمسلمين وغير المسلمين كالمستشرقين وعلماء أوروبا الذين اقتبساها كثيراً من العلوم والمعارف والمدنية والحضارات من معارف الإسلام ، فلم يكن ليتسنى لهم ذلك لو لا تعلمهم اللغة العربية وأعتبرها أساساً لفهم ثقافات الإسلام التي لها أكبر الأثر في تصحيح الحقائق وتهذيب النقوس وأصلاح السلوك ووضع نظم العدالة .

وبهذا يظهر أننا نناصر الرأي القائل بوجود سبيبية بين الإسلام واللغة العربية فان دين الإسلام هو الذي تسبب في انتشار اللغة العربية على الوجه الذي أشرنا إليه وجعلها مصدر اشعاع روحي وعلقي وخلقي باعتبار أنها هي التي تصور مبادئ ذلك الدين وما يدعوه إليه من السمو في مختلف النواحي .

وحقاً لا الإسلام لما تأثرت اللغة العربية ان تنتشر في العالم هذا الانتشار لأنها كانت لغة قوم جاهليين محصورين في جزيرتهم مشتملين على أنفسهم غير ظاهرين على غيرهم تضعف قوتهم اختلافاتهم وتفاكمهم وخروج بعضهم على بعض ، وتسلط القوي منهم على الضعيف مما أدى إلى ابقاءهم تحت سيطرة أمميين ، هما : الفرس والروم ، فلما جاء الإسلام انتشلهم من وهمهم وجمع كلمتهم ووحد صفوفهم حتى كانوا هم الفالبين ، وصارت لغتهم في فترة وجيزة تغطي منطقة فسيحة من البلاد من غرب أوروبا إلى شرق آسيا وشمال أفريقيا وغير ذلك .

وإذا أردنا أن نستدل على صحة هذا الرأي بواقع البيئة الإقليمية وما فيها ، فإننا نجد مصر قبل الإسلام ، كانت تلهم بلغات مختلفة ، هي اللغة القبطية ولغة الدول المستعمرة . فلما دخلها الإسلام بدوره اتجهت الانظار إليه وتطلع العلماء إلى الرغبة في التزويد منه ، وكان هذا سبلاً إلى تعلم اللغة العربية ، ثم تجلت محاسنها في معارفها وفي أدابها حتى غرت هذه اللغة ما عداها من اللغات ، وصارت لغة التخاطب والكتابة والشعر والعلم بمختلف فروعه .

وقد أعاد العرب على تحقيق ذلك الظرف والظهور أنه لغة حية فتية تميز بشبابها في كل عصر وتنسج لكل ما يجد من صور الحضارة ومظاهرها ومتعدد الثقافات والمعارف ، وهذا المعنى يزداد وضوحاً كلما اتجه المجتمع الإنساني نحو التقدم والرقي ، فان اللغة العربية تجد نفسها غير عاجزة عن مسيرة كل جديد ، والتعبير عن أغراضه ومراميه .

ونستطيع أن نقول بما لذلك أن قوة اللغة العربية معنى ذو أثر صالح في تقوية الواقع الديني لأن التعمق في دراسة اللغة العربية يستتبع لا محالة التعمق في فهم دوح التشريع الإسلامي الذي جاء بها القرآن الكريم والسنّة النبوية – ولهذا يحتاج طلاب الدين الإسلامي دائمًا إلى دراسة اللغة العربية ويجعلون ذلك وسيلة من وسائل السير في تعرف معاني القرآن الكريم والسنّة النبوية على هدى وبيبة فيكونون أبعد من غيرهم من العثار في فهمها . حتى إن العلوم التي تخدم القرآن والفقه تعتبر بمثابة موازين للفروع الفقهية كلّم أصول الفقه تجعل من موادها وأركانها ما يسمونه باللغويات التي ترشد من إراد التوسيع في فهم الأصول إلى الوقوف على بحث ما يهم في اللغة العربية ، كما أنه من المتفق عليه أنه يشترط في الشخص ليتحقق فيه وصف الاجتهد أن يكون على علم باللغة العربية . وعلى عكس ذلك نجد ضعف الكلمة العربية كثيراً ما يكون سبلاً إلى التخيّط والزلل وعدم الامن من المشار لمَنْ أراد الاستقلال بالبحث ، ولم يكتف بأن يكون تابعاً لغيره وأخذوا عنه ، مما يدل على أثر اللغة العربية في تفهم الدين ومدى الحاجة إليها لذلك . كما يدل على اتسار الدين الإسلامي في انتشار اللغة واتساع افهامها ، وهذا القدر كاف في إيضاح ما هناك من تلازم بين انتشار الإسلام وانتشار اللغة .

اما تأثير الفكر الإسلامي عن طريق لغة القرآن في اللهجات فان ذلك يظهر مما دل عليه البحث التاريخي في لهجات العرب من أنها كانت منتشرة ومختلفة اختلافاً بيناً ، فلما جاء القرآن الكريم بلغة قريش وأثر لهجاتها على لهجات غيرها من القبائل كان حرص المسلمين على لغة القرآن مما يزدهرم في مختلف اللهجات عدا لهجة قريش التي جاء بها القرآن ، وإن كان القرآن لا يخلو من بعض اللهجات الأخرى تيسيراً على تلك القبائل التي يصعب عليها أن تنطق بلهجة قريش ، كما يتبيّن ذلك في بعض القراءات التي تختلف بين المد والقصر والتسييل والهمز والاطالة وغيرها مما يتبيّن في موضعه من كتب القراءات ، وهذا لا ينفي أن الأصل في القراءة هو القراءة بلهجة قريش وإن وجود غيرها في القراءان من باب الترخيص الذي من شأنه أن يكون عند وجود العذر .

وقد نص أبو عبد الله معمور بن المنفي على أن قراءة القراءان كانت أولاً بلهجة قريش ، فلما انتشر الإسلام

تتأثر به بلاد المغرب من اللغة البربرية الأصلية التي تزاحم اللغة العربية ، ولمل ايشارهم قراءة ووش برجع الى قرب لهجتها من لهجاتهم ، ولهذا فاننا لا نستطيع ان نأخذ عليهم كثيرا من المأخذ في ترتيل القراءان الكريم .

وبعد هذا كله تجلی الاجابة على السؤال الاخير ، وهو أن اللغة العربية يجب أن تحتل في بلادها فضلا عن غيرها من البلاد العربية والاسلامية المكانة الرفيعة والا تؤثر عليها لغات أخرى للمحافظة على الدين من ناحية والاستمساك بأصوله وفروعه ولأنها هي اللغة التي يمكن ان تقرب وجهات النظر وتيسّر التخاطب بين المسلمين ، حتى تجتمع صفوتهم وتتحد كلمتهم .

هذا فضلا عما اشرنا اليه من أنها لغة حية قوية وما نشير اليه الان من أنها لغة علم وادب وفن وحقائق وعواطف وكل ذلك لا تستغني عنه امة حية تشد النبوض وتسمى اليه .

ودخلت فيه قبائل عربية مختلفة امر رسول الله ان يقرئه كل قوم بلهجتهم تيسيرا عليهم ، ولهذا فاننا نذهب مع المحققين من العلماء الى ان غير العرب من تستعصى عليهم حروف بعض الكلمات التي ليست في لهجاتهم فان الدين يرخص لهم ان ينطقوها بما تتسع له قدرتهم ، ولا يكلفهم أكثر من ذلك كي لا يشق عليهم ، وهذا يدخل كما اشرنا في الرخصة التي تقتضي التيسير على الناس ورفع العرج عنهم .

والملحوظ ان المصريين اكثر الناس قربا الى لهجة قريش وا خدا بطريقتهم في الترتيل ، وقد يكون للأزهر ومكاتب تحفيظ القراءان الكريم التي يشرف عليها من أخذوا بكثير من تعاليمه في اللغة العربية مباشرة او بواسطة من ينشئون من أبنائه في مختلف نواحي القطر المصري ، واذا كنا نرى في بعض اللهجات غير المصرية ، كما في المغرب ، بل في الحجاز نفسه ، شيئا من البعد عن لهجة قريش ، واللهجات العربية الأصلية ، فان ذلك يرجع الى ما طرأ على الالسنة من تغير بمعاصرة مختلف الامم في بلاد الحجاز ، والى ما

